مفكرة

بقلم : أبو أنمار

يموت الشجر واقفاً !

لا ادري لماذا فكرت كثيرا في هذه الرحلة ، وبالاسباب التي دفعتني للاهتمام بها علما انني سافرت كثيرا قبل هذه الرحلة الى دمشق ، وفي اجواء مختلفة ، رافقت فيها اناسا كثيرين منهم الثرثار والطفيلي ومنهم من اهتممت بحديثه ، وكثيرا ما شاركت بعضهم في الحديث ، اذا طلبوا مني او رأيت في حديثهم ما يسرني ، الا انني في هذه الرحلة ومنذ ان انطلقت السيارة وداعبت عجلاتها الارض بخشونة . فكرت بها واخذت اتطلع للسماء المشمسة التي كانت تظلل بيروت في ذلك اليوم واستنشقت الرياح الباردة التي كانت تغزوها من الجبال المحيطة بها ، بل وتطلعت الى الركاب واحدا بعد الاخر وتحسست وجود هويتي والمظلة التي احملها ، وكانني في رحلة لها اهمية خاصة بالرغم من ان كل شيء عادي فيها ، الا شيئا واحدا ، هو مرور السيارة هذه المرة من طريق مرجعيون الذي لم يسبق لي ان مررت عبره ، وما عداه كما قلت لا من جديد على الرحلة .

وفي تقديري ان هذا السبب ليس كافيا لكي يعطيها اهمية خاصة ، ولكن كثيرا ما يشعر الانسان بالارتياح والسرور فيندفع للاهتمام بمسائل صغيرة ، لم يهتم بها من قبل . وهذه لحظات يمر فيها الانسان عندما ينسى همومه ويرى الدنيا من خلال احب المناظر اليه فيعيش لحظات يسجل فيها لتلك المناظر صورا في مخيلته ، وانا اعتقد ان الشيء الذي سيطر على تفكيري وجعلني اعتبر هذه الرحلة غير عادية هو حالة من الارتياح تحدث عند الانسان عندما يقوم بعمل ما يراه جيدا ، او تاتي هذه الحالة هكذا دون انتظار ودون اسباب في حين تكون دوافعها عميقة جدا في نفسه .

وها انا منذ انطلاقة السيارة اعيش حالة الارتياح ، التي دفعتني للنظر العميق في الطريق والجبال التي لبست ثوبا ناصع البياض ، والاشجار التي ازدانت بثمار من الثلج المتراكم على اغصانها ، وجمد حركتها وحولها الى ثريات بيضاء تزداد روعة عندما تنعكس عليها اشعة الشمس المتسللة بخجل من بين الغيوم الكثيفة ، فتحيلها الى ما يشبه الشرائح المقطوعة من معدن مصقول ، فازداد ابتهاجا واهتماما بهذه الرحلة ، وكذلك ازداد تاملا بما صنعته الطبيعة ، فافتح صدري وعيني لاشم وارى ما يثلج صدري فاشعر بارتياح كبير .

قضيت وقتا طويلا من عمر الطريق احملق في هذه المناظر ، حتى بدات السيارة تخفف من سرعتها الى المد الذي وقفت تماما ، فقطعت سلسلة أفكاري الحالمة ، والتاملات الوردية التي كنت اعيش فيها ، لان الحالة السكونية نبهتني وبالتالي نقلتني الى الواقع ، فاذا انا امام حاجز يحرسه عسكريون ، والى جانبه سيارة فدائيين تتحرك ببطء باتجاه الجنوب . في هذه اللحظات سمعت صوت زميلة السفر التي كانت تجلس قربي في مقدمة السيارة ، والتي لم اشعر بوجودها طوال الطريق، بالرغم من انني كنت اشم عطرها كلما فتح احد الركاب زجاج السيارة .

كان كلامها متوافقا مع توقف السيارة امام الحاجز ، فانتبهت لوجودها ، فكانت جميلة وجذابة ، بشرتها بيضاء مشربة بحمرة خفيفة تزدان بعيون نرجسية واسعة ويغطي نصف وجهها خصلات شعر كستنائي لماع يتدلى على بدلتها الخضراء الانيقة فتزداد جمالا .

الا ان هذا كله لم يشغلني كثيرا ، فسرعان ما انتبهت الى مسالة كبيرة عبرت عنها باربع كلمات : « فدائيون ، فدائيون ، ذبحوهم .. ولكن » .

وقد فاهت بالكلمتين الاخيرتين بصوت هادىء ، لكنه مشحون بالم وتحد ، والتفتت نحوي . ولم يكن لي اي تفسير لهذه الالتفافة في حينها ، الا انها تطلب مشاركتي في الحديث ، او رايي بالعمل الفدائي ، فقلت ، محاولا جس نبض الموضوع :

ـ « اتعرفين يا آنسة ؟ ان كلماتك ذات معان غامضة، وربما كبيرة ، وهي تدل .. »

وقاطعتني : « انا اعرف معانيها جيدا لانني تعلمتها من الطفولة وعشتمعها وعاشت معي ، ورضعتها مع الحليب وعندما كبرت قرأت عنها الكثير ، فاصبحت قوانين حياتي لانها حياة وطريق من يصنعون الحياة للملايين ، وينيرون طريقها بمشاعل زيتها دماؤهم وجسورها اجسامهم . من اجل ان تروى الارض وتخضر الحقول وتشيد المصانع ويخلق انسان جديد ، لارض جديدة ، ملؤها المحبة والاخاء والانسانية والامن والسلام .

ولكن بعد حين ..

اي بعد ان تقلع اشجار الحقد والاستغلال والعنصرية من تلك الارض .

تلك هي بعض معاني كلماتي كما افهمها وكما تعلمتها ، الا انني حين قلت ذبحوهم، لم اكن اعني بها ان كلمة الفداء الغيت من قاموس الوجود . بل مرت هكذا على لساني لانني شاهدت المجازر التي اعدت لهم في عمان والزرقاء ، وقرأت عنها الكثير، لهذا اعقبتها بكلمة « ولكن » ..

اما رأيك بانها تدل ، فهي بالتاكيد تدل ..

وقبل مواصلة حديثي ارجو ان تتقبل اعتذاري لانني قاطعتك قبل ان تكمل كلامك، لكنني لا اعتقد ان دلالتها هو ما تصورته انت .. بانني فدائية مثلا ، مع انني طموحة لان احمل هذا اللقب ، مع صعوبته وتعرض حامله في كل لحظة للموت ، ولان يواجه اعداء كثيرين ، امبرياليين ، اسرائيليين ، ورجعيين عرب ، وهؤلاء اكثر ضراوة في محاربتهم للفدائيين . لان مسالة الصراع معهم مصيرية وتاريخية ، ولهذا فالشهداء الذين وقعوا بايديهم اكثر بعشرات المرات من الذين سقطوا في ايدي الاسرائيليين ، بشكل مباشر وهذا شيء مؤلم بالطبع ، بالرغم من انني لا اشعر بغرابته ، ولكن اندفع للحقد اكثر عليهم ، لانهم يمنعون الفدائيين من تادية رسالتهم التي آمنوا بها وهي تحرير ارض فلسطين .

واسمح لي ان اروي لك مقطعا من وصية فدائي ازوجته واولاده ، كتبها وهو يتعذب على فراش الموت لانه لم يخضب بدمه ارض فلسطين :

« زوجتي واولادي : لقد حفظت والدتي دمي عشرين عاما بعد استشهاد والدي ، وتنقلت بي الى اكثر من وطن عربي ، وهي تهتم بتغذيتي بزادين احدهما مادي والاخر روحاني عبر كلماتها التي لا ازال اتذكر جزءا منها : « ان شجيرات الزيتون وبيارات الليمون ، عطشى تريد سقيا حتى تعود لها خضرتها ونظرتها ، بل حتى شجرة اللوز التي غرسها والدك في وسط الدار وسقاها بدمه ، هي الاخرى تشكو العطش الان .. ولكن الطريق صعب ويكلفك دمك ، الذي حافظت عليه عشرين عاما ، حتى يكون اكثر غزارة ، وبالتالي اكثر قدرة على ارواء الارض » .. لكنني عجزت عن تلبية طلبها لان دمي سال في مكان آخر .

صحيح ان هذا المكان هو بداية الطريق الى ارض الزيتون والليمون العطشى، ولكن ليست هي امنية والدتي .

فالذين اراقوا دمي اناس لا يعرفون الشجر ولا الربيع ، بل يحقدون على الاشجار لانهم لم يعتادوها .. وانهم تربوا بين العاقول والرمال بعيدا عن كل خضرة » .

وهذا يعني يا رفيق السفر ان ذيول اسرائيل وعملاء الامبريالية الذين يحاربون العمل الفدائي كثيرون ، وبالتالي فان من يحمل لقب الفداء يجب ان تكون امامه صورة هؤلاء واضحة ، وله القدرة على تحمل تآمرهم وغدرهم وحقدهم ، طبعا هذا شرط واحد لمن يحمل هذا اللقب ، بالاضافة الى الانضباط والوعي والصبر والامانة والاخلاص والتنظيم وقوة الارادة ، وتحدي القديم ، وافكار القديم ، وتقاليده ، وعاداته ، وهذه شروط لا اتمكن من الالتزام بها ، انا نفسي ، ربما لانني فتاة اولا ، وابنة اسرة برجوازية مرتبطةبقوانين واعراف المجتمع القديمة ثانيا . وهذان السببان يشكلان اكبر عائق في طريق طموحي لان اكون فدائية ، لكنك قد تقول ان الكثير من الفتيات تمردن على هذا الواقع ، وقمن بعمليات كبيرة ودور كبير ، والعمل الثوري رعى هذه المبادرات ، وغذاها ، وطورها ، وانا اقول لك ان من تتحدث عنهن طلائع قليلة وصغيرة ، ومعظمهن من فتيات فلسطين .. اما انا فمن الشام ! »

قلت ، عندئذ ، محاولا استفزازها :

ـ « ان طموحك للانتماء للعمل الفدائي ووعيك لمهامه ومتابعة اخباره ، جعلني اعتقد بانك فلسطينية ! »

قالت :

ـ « اتعتقد ان الانتماء الاقليمي وحده هو الذي يستند اليه الانسان العمل الثوري ؟ كلا ، ان الانسان في الثلث الاخير من القرن العشرين له اكثر من انتماء بسبب عقيدة هذا العصر ، التي يجب ان يلتزم بها كل انسان له صلة بحضارته وحياته ، وهذه العقيدة تحدد اكثر من انتماء هي « الوطن ، الامة ، الطبقة ، الانسانية جمعاء » وانا بنت هذا العصر ، وبالتالي فانني اناضل لاكون جزءا منه ومن تقاليده ، وثقافته ، وعقيدته .

ولكن من خلال تفاعلي مع الواقع المادي الذي اعيش فيه وليس بالقفز من فوق هذا الواقع ، والا لما تاخرت ساعة واحدة عن الالتحاق بالعمل الفدائي والتمرد على عائلتي وتقاليدها القديمة ، لكنني اعمل يوميا على تغيير افكارها ومن خلال اقناعهم بدور المراة المساوي للرجل اجتماعيا وسياسيا ، واقتصاديا ، ضاربة لهم العديد من الامثلة التي تؤيد وجهة نظري، وبمسائل حسابية لانتفاضات الشعوب ومنها تاريخ شعبنا وامتنا التي توضح دور المراة ، بالاضافة الى دورها الان ، وفي تقديري ان هذا الجهد سوف يعطي ثماره عما قريب ولو في عدد من الاسر، اذا عمل كل انسان معاصر في أسرته فنتيجة هذه الاعمال سوف تؤثر على عموم المجتمع من خلال علاقات التفاعل والجدل ما بين الجزء والكل .

ان هذا الايمان يا رفيق وضعني امام الشعور بانني انتمي ايضا لشعب فلسطين وقضيته ، ولا اعتقد انك تختلف معي حول هذا الانتماء . هكذا يقول شعوري ، ولو كثيرا ما يخطىء الشعور ! »

وتوقفت عن الحديث فاستغليت هذه الفرصة لاستخلص شيئا من حديثها ، كانت الطريق توحي ، مرة اخرى ، بهدوء لانهائي ، فاخذت ارتب ، بيني وبين نفسي، هذه الحقائق :

اولا : غيرت وجهة نظري فيها ، لانني كنت في بداية الحديث انظر اليها كفتاة جميلة فقط ولكن بعد هذا الحديث رأيت انني امام مناضلة ، الحديث معها هام لانه يعطيني تصورها كانسانة صديقة للعمل الفدائي .

ثانيا : تكشفت لي مسالة هامة هي تفكير العالم الاخر غير المنتمي تنظيميا في صفوف حركة الثورة الفلسطينية ، بل رأيت في هذا العالم صورة جديدة مشرقة .

ثالثا : وضح لي حديثها ان مرحلة الانحسار التي يمر بها العمل الثوري لم تسحب نفسها على كل الناس غير المنتمين .

ولاحظت انني كنت اهدف الى معرفة الكثير عن افكار هذه الفتاة التي كانت تنساب من عقلية راجحة وارادة قوية وثقة بالنفس ، بالرغم من صغر سنها الذي لم يكن في تقديري اكثر من ثمانية عشر عاما ، ولكن يبدو ان سعة اطلاعها وتربيتها لعبت دورا كبيرا في انضاجها مبكرا .

وما ان انتهيت من تفكيري بحديثها رايت من الضروري متابعة الحوار ، فقلت لها : « في بدء حديثك قلت ذبحوهم ولكن .. فماذا تقصدين » ؟

ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت : « معناها الوجود ، معناها ان قطع غصن او عدة اغصان من شجرة ثابتة الجذور في اعماق الارض لا يمكن ان تموت مهما تعرضت لعمليات البتر .

وهكذا العمل الفدائي فهو لا يموت، وكلمة « ولكن » تعني ان الذبح الذي تعرض له كبير وكبير جدا ولكنه لم ينهه ، هذا ما قصدته ، فهو في نظري كالشجرة ينمو ويبدل اوراقه واغصانه ، لانه اصل الوجود ولهذا لا يموت » .

قلت لها : « ان تشبيهك له بالشجرة ، صحيح لحد ما ، ولكن الاشجار اذا ما تعرضت للجفاف او البرد القارص ، الذي لا تتحمله طبيعتها قد تموت .. »

ـ « صحيح قد تجف اوراقها ، ولكنها ستبقى واقفة ، وهذا هو الفرق بينها وبين الحيوانات ، التي تموت على الارض وتتعفن رائحتها ، بينما الاشجار تموت واقفة وشامخة فتبقى شواهد وجودها واثرها لعدة اعوام ، تتحدى الموت الذي سلبها الخضرة والثمرة منها .

من هنا جاء تشبيهي للفدائي بالشجرة فهو ان مات سوف تبقى آثاره وتاريخه وجذوره في الارض وفوقها تتحدى الاعداء وتتحدى القتلة ، وتتحين الفرص والظروف لتنمو مرة اخرى ولكن بنوعية اجود واكثف وارقى ، بسماد سيضاعف مفعوله انتاج الارض » .

وبعد فترة صمت ، مضت تقول :

« ولكنني لحد الان لم اعرف رأيك » .

قلت لها : « ماذا تعتقدين ؟ »

فردت علي : « ان انصاتك كل هذه الفترة لحديثي يدل على اهتمامك بالمسالة ، لكن هذا لا يدل على التزامك » .

وانتهى الحديث قبل ان تقف السيارة على رصيف ساحة المرجة .

وما ان حملت حقيبتي وهممت بمغادرة السيارة ، قالت لي : « اتعتقد انه يمكن ان نلتقي مرة اخرى ؟ اما لك عنوان يمكن ان نتراسل عليه ؟ »

قلت لها : « لا . لانني لاجىء في مخيم من مخيمات البؤس التي فرضت على شعبي ان يعيش بها وبالتالي فلا عنوان لي .. »

فهمت ماذا اقصد ، وابتسمت وشيعتني بنظرة عطف كبيرة ، مليئة بالتاييد .